السيكولوجيا المعرفية psychologie cognitive

-

يعتبر علم النفس المعرفي ذلك المجال العلمي المتخصص في علم النفس والذي]. ولقد جاء علم النفس المعرفي خلال العقود الأخيرة ينطوي على موقف منهجي ونظري أكثر اعتدالا عن ذلك الموقف الذي كان يمثل نموذج الاشتغال العلمي الصارم لسنوات 50 و60[35] ، وهو بالخصوص النموذج التجريبي الإمبريقي.

أما بالنسبة إلى بدايات تشكل المجال الجديد وقيام المشروع العلمي فيه ، فإن الأمر يرتبط بحدث نشر العالم أولريك نيسر U.Neisser لمؤلفه علم النفس المعرفي cognitive psychology سنة 1967.الذي يعتبره البعض بمثابة حجر الزاوية في التاريخ الحديث لعلم النفس)[37]. إذ سيبرز علم النفس المعرفي بكونه توجه جديد لعلم النفس نحو دراسة النشاطات الداخلية للفرد ، العقلية منها بالأساس ، وذلك في تقابل مع النشاطات الخارجية الخاضعة للملاحظة المباشرة ، وهي النشاطات التي شكلت كلاسيكيا معنى للسلوك[38].

من هذا المنطلق إذن ، سيتجه النظر إلى الدور الإيجابي النشط والفعال للفرد في تفاعله وتعاطيه مع المثيرات الداخلية والخارجية ، والتي يتم التعبير عنها بالمعلومات. إنه نشاط يقوم به الفرد من خلال عمليات التجهيز والتدبير والمعالجة لهذه المعلومات ، على اعتبار أن الفرد بخصوص هذه العمليات هو بمثابة أداة ذاتية النشاط والفعالية[39]. لما لهذه العمليات من أهمية في حياة الإنسان بشكل عام.

في هذا السياق ، فإن منظور علم النفس المعرفي يقوم على افتراض أساس مفاده أن السلوك هو نتاج لكم المعرفة ونوعها وتنظيم هذه المعرفة تنظيما ذاتيا أو موضوعيا ونظام سيرورة المعلومات لدى الفرد واستراتيجياته المعرفية والتي تحمل أهم خصائص التناول المعرفي[40].

تبعا لهذا الافتراض يكون الفرد هو عبارة عن نسق من معالجة المعلومات ذات طبيعة مادية إلى معلومات ذات طبيعة ذهنية أو تصورية[41]. ومن ثم فالسلوك تكون له إذن ، أسباب عقلية ، أي أنه بالنسبة إلى المنظور المعرفي هناك سببية مباشرة بين الحالة الذهنية والسلوك ، وهذه السببية هي التي يتعلق الأمر بدراستها[42] وإعطائها الاهتمام المناسب .

الفكرة المحورية بالنسبة إلى هذا المنظور[43] ، تفيد بأن الإنسان يمتلك خاصية فريدة حيث تسمح له بفحص المضامين والدلالات الذهنية بكيفية استبطانية[44]. فالإنسان تبعا لذلك يساهم في تفسير التصرفات والسلوكات من منطلق دينامية ذاتية داخلية.

بالنسبة إلى الموقف العلمي إذن ، فإنه من الممكن تفسير سلوكات الفرد وفق طريقتين: سواء بإثارة الحالات الذهنية أو بإبراز تأثير تعزيزات وإشراطات المحيط الخارجي. هاتين الطريقتين من الواضح أنها شكلت القاعدة التي انبنت عليها مقاربتين ستسودان في دراسة سيكولوجية الأفراد: سيكولوجية تعتمد التفسير من الداخل وسيكولوجية تعتمد التفسير من الخارج[45]. إنها بمثابة ثنائية التصقت بمجال علم النفس عبر مختلف المحطات التاريخية ، حيث طبعت هذا المجال بنوع من المد والجزر.

علم النفس المعرفي كما يظهر من خلال التوجه الذي أراده له مؤسسوه والداعين إلى إقراره وأيضا من خلال شروط تاريخية للنظر والممارسة العلمية ، نشأ كرد فعل على علم النفس الذي كان تحت هيمنة السلوكية Béhaviorisme ، وعلى الخصوص فيما يطرحه ويدعو إليه منظور هذه الأخيرة عند تحليل السلوك وتفسيره بأن هناك حدودا لا يمكن تجاوزها. على أساس أن علم النفس بحسب هذا الاتجاه تنحصر مهمته في كونه لا يجب أن يهتم بدراسة الشعور أو الوعي ، ولكن الاهتمام بدراسة السلوك ذاته الصادر عن الأفراد والذي يمكن ملاحظته وقياسه باستخدام الطرق الموضوعية ، كما أن منظورها من حيث التقليد العلمي الذي أرسته يرتكز على دراسة السلوك comportement في ضوء مجموعة المثيرات والاستجابات التي ترتبط بالمواقف السلوكية للفرد ، وليس النظر إلى علم النفس على أنه علم دراسة للصور والأفكار التي تدور في عقل الفرد. إن السلوكية وفق هذا المسعى إذن ، تهتم بالأحداث والوقائع الملاحظة ، أي ما يقوم به الإنسان أو يفعله خلال تفاعله المستمر مع البيئة. ومن هذا المنطلق فإن السلوك يمكن تناوله علميا من خلال معادلة المثير والاستجابة.

لقد كان العلماء والباحثون الذين ليسوا على اتفاق مع السلوكية أو أولئك الذين خيبتهم هذه الأخيرة ، يتحدثون قليلا وبحذر (أو لا يتحدثون مطلقا) عن العقل والعمليات المعرفية أو الأنشطة العقلية المشابهة[46] ، وذلك لأن السلوكية حرمت التفكير في تلك الموضوعات ، كما عملت على محاربة وإقصاء أي شكل من أشكال الاهتمام بتلك الموضوعات والقضايا. إذ عالج السلوكيون الناس وكأنهم عبارة عن "صناديق سوداء" يمكن فهمها ببساطة فقط من خلال معالجة وقياس المثيرات الداخلة فيها والاستجابات الخارجة منها.

أما تمرد علماء النفس الذين سيؤسسون لما سيعرف بعلم النفس المعرفي على النموذج السلوكي ، فهو للتأكيد على أن علماء النفس يجب أن يصلوا إلى فهم ما يجري داخل "الصندوق الأسود" ، وبصفة خاصة العمليات العقلية.[

لقد أتى علم النفس المعرفي إذن ، للتأكيد على أهمية الظواهر والوقائع التي تحصل بين المثير والاستجابة ، أي تلك العمليات والسيرورات العقلية التي تكون فاعلة على مستوى الصلة بين المثير والاستجابة ، حيث يكون لها دور مهم إن لم يكن جوهري في الدلالة على فعل ونشاط الإنسان. وبذلك يتطلب الأمر الأخذ بالاعتبار عدد من المتغيرات والعوامل الوسيطة التي تسمح بتحويل معادلة المثير والاستجابة من طابعها الميكانيكي والتقليدي إلى معادلة حيوية ونشطة تتمثل في المعالجة .Traitement في هذا السياق أيضا سيأتي اعتماد مفهوم المعلومة ليأخذ مكان مفهوم المثير الذي لم يعد يفي بالغرض ، إذ صار مفهوم المعلومة بمثابة مفهوم أساسي في علم النفس المعرفي. أما النشاط العقلي لدى الإنسان ، وهذا هو المقصد بالنسبة إلى المنظور الجديد ، فإنه يعمل على تدبير ومعالجة هذه المعلومة لتحويلها إلى أشكال ومظاهر سلوكية يتحقق من خلالها التفاعل والتوافق مع البيئة.

هكذا يتبين أن تعارض علم النفس السلوكي ، أي علم النفس ذي الاتجاه السلوكي وكل مقاربة سيكولوجية تتناول العمليات العقلية هو أساسا تعارض بين المفاهيم المتعلقة بالسلوك وتلك التي تفيد ما هو عقلي معرفي

لا شك أنه من أجل فهم طبيعة التجديد العلمي الذي حصل مع علم النفس المعرفي ، لا بد من "وضعه في سياق دينامية البناء المفهومية المسترسلة ، وعند ذلك لا يمكن الحديث عن اكتشاف علمي كحدث منعزل يتم في لحظة محددة بتدقيق وفي استقلال عن ذلك السياق. على هذا الأساس فإن قيام علم النفس المعرفي لم يحدث دفعة واحدة أو بكيفية منعزلة ، حيث إن هناك مجموعة من الشروط التاريخية والفكرية التي كانت بمثابة عوامل مهيئة مؤطرة لما سيؤول عليه الأمر حاليا. بطبيعة الحال مع الأخذ بالاعتبار تلك الشروط العامة التي صاحبت قيام العلوم المعرفية.

وهكذا فإنه يمكن قراءة بروز هذا المجال السيكولوجي ضمن سياق تاريخي يتوزع على أربعة مراحل ، وهو سياق طبع التطور من علم النفس العام إلى علم النفس المعرفي ، كما أنه يعكس جدلية نوعية في مسار علم النفس بشكل عام.

.المرحلة الأولى: تقترن باستقلال وانطلاق السيكولوجيا العلمية ، وتميزت من خلال ما كان متاحا من دراسات تتعلق بالملكات والقدرات العقلية ، كما أن الاهتمام

اتجه إلى دراسة الإدراك الحسي مع اعتماد المنهج الموضوعي والإبقاء أيضا على منهج الاستبطان ، إنها مرحلة نشطت خلالها حركة القياس العقلي ومحورها الأساسي الذكاء.

.المرحلة الثانية: تميزت باكتساح الاتجاه السلوكي لمجال علم النفس ، وقد تمحورت الدراسات فيها حول التعلم والكشف عن العمليات التي تتحكم في اكتساب وصيرورة السلوك ، مثل الإشراط والتعزيز باعتبارها عمليات تلعب دورا أساسيا في تحقيق توافق الفرد. هذه المرحلة شهدت أيضا قيام مدرسة الجشطلت Gestalt التي عارضت بشدة أطروحات السلوكية وانتصبت كمنافس قوي سواء على مستوى المنظور أو المقاربة ، حيث أبرزت الطابع الكلي في تفسير السلوك على حساب الطابع التجزيئي. الجشطلت سعت إلى جعل الإدراك بمثابة الموضوع المركزي بالنسبة إلى علم النفس. كما ألحت هذه المدرسة على النظر إلى كل من الشعور والحياة العقلية من أجل فهم سيكولوجية الإنسان.

.المرحلة الثالثة: ستشكل منعطفا مهما في تطور علم النفس ، حيث ستطبعها نشأة الاتجاه المعرفي. وهو اتجاه قام على معارضة ومواجهة أطروحات السلوكية بكيفية رئيسية ، وقد انبنى في البداية من روافد متعددة تتجلى في تيارات ثلاث 1-تيار ركز على البنيات العقلية: ومن مكوناته نظريات الجشطلت وبياجي وتشومسكي. فبالنسبة إلى الجشطلت أنها أولت أهمية بالغة للعمليات العقلية في النشاط الذهني ، وجعلت النظر إلى الحياة العقلية باعتبارها أنساقا وأنظمة. فيما يتعلق بأعمال بياجي ، كانت تندرج تحت تسمية "علم النفس المعرفي" ، وهي الأعمال التي أنتجت نظرية قوية ومتكاملة حول النمو العقلي والمعرفي. أما تشومسكي فإنجازه في مجال اللسانيات التوليدية والتحويلية سيفيد قطاعات مهما في النشاط العقلي والذي هو قطاع اللغة.

-2تيار يعتبر أن النشاط العقلي هو نشاط يتمثل في معالجة المعلومات ، وأن المعرفة تتحدد من خلال هذه المعالجة. وهذا الطرح نشأ على شاكلة تقابل بين العمليات التي يقوم بها الحاسوب من جهة والإنسان من جهة ثانية ، أي بين الذكاء الاصطناعي والذكاء الإنساني وذلك من حيث القدرة على معالجة المعلومات. ثم إن هذا التيار سيطبع بقوة مجال علم النفس المعرفي المعاصر.

-3تيار أخير ركز على دراسة الطريقة التي يعالج ويدبر بها الإنسان مختلف المعلومات وذلك من وجهة تجريبية ، أي من خلال تجارب مختبرية وأبحاث أساسية دقيقة. فالاهتمام هنا اتجه إلى عمليات الانتباه من حيث الإمكانات والطاقة والمحدودية التي تتوفر عليها الذاكرة في اشتغالها.

لقد لعبت هذه التيارات دورا مهما في قيام الاتجاه المعرفي ، وأسست الرصيد الفكري والعلمي لما سيكون عليه هذا الاتجاه[54] ، بل أيضا الأرضية والأساس لما ستتشكل منه إلى حد ما العلوم المعرفية لاحقا.

.المرحلة الرابعة: تعتبر مرحلة متقدمة فيما يخص الاتجاه المعرفي ، وستنشط خلالها العلوم المعرفية بفعالية كبيرة ، الأمر الذي سيعزز من مركز علم النفس المعرفي. ستتعمق دراسة معالجة المعلومات سواء الرمزية أو غيرها ، وذلك بتناولها على مستوى التمثلات المعرفية ومن خلال عمليات الفهم والاستدلال والتأويل. تميزت هذه المرحلة إذن ، بدراسة وتحليل أشكال الاشتغال المعرفي للعقل الإنساني. إلى جانب إعطاء أهمية للاستبطان كطريقة تفيد في الكشف عن عدد من الوقائع التي لها حضور معين في هذا الاشتغال. وبذلك تسجل عودة إلى اهتمامات مؤسسي علم النفس خلال أواخر القرن 19 ، خاصة فيما يتعلق بالنشاط الذهني[55].

يتبين من خلال هذه النبذة حول المراحل التي طبعت السياق التاريخي لنشأة وتطور علم النفس المعرفي ، بعض العوامل المؤثرة ، والتي ستشكل منعطفا هاما بالنسبة إلى مجموع حقل علم النفس ، وبخاصة فيما يتعلق بمجال الممارسة العلمية والاشتغال النظري[56] ، لدرجة سيحل معها إقرار مفاده أن علم النفس من دون علم النفس المعرفي أصبح شيئا لا يمكن تصوره في الوقت الحالي[57].

يرتكز الاهتمام في علم النفس المعرفي ، كما تتم صياغته في الفترة الراهنة وحسب مشروعه العلمي ، على السعي نحو فهم وتبيان النشاطات العقلية التي يقوم بها فرد معين باعتباره بمثابة فاعل) acteur وليس مجرد مستجيب) وذلك من أجل تحقيق توافقه مع المواقف والظروف التي يواجهها[58]. وهذه النشاطات وما تعكسه من عمليات تتراوح من البسيط إلى المعقد ، وبالتالي فالمسألة تمتد بالنسبة إلى الاشتغال العلمي إلى طرح نماذج والبرمجة لتعلم الفرد وإكسابه مهارات كاستثمار للنشاطات العقلية المختلفة. ومن ثمة فما هو سيكولوجي وذهني هو نوع السلوكات المدروسة. إنها تلك التي تسمح بالمعارف[59] ، أو بتجسيد وتشكيل وتصريف هذه المعارف.

إن مواقف المراجعة وإعادة النظر الأساسية التي أدت إلى نوع من الإفلاس بخصوص النظريات التفسيرية التي كانت السلوكية تمثل النموذج القاعدة كما يبدو من خلال السياق التاريخي وجدلية الصيرورة بالنسبة إلى العلم السيكولوجي ، يبقى المحرك الرئيسي لها والأكثر تمثيلية في الاشتغال العلمي هو الاتجاه المعرفي[60]. وهو الاتجاه الذي شكل منظورا جديدا في علم النفس. تجلت هذه المواقف إذن ، في الاهتمام بالإشكاليات المتعلقة بالأنطولوجيا وبالإبستمولوجيا الأساسية لعلم النفس. بمعنى أنه على المستوى الأنطولوجي يتم الانتقال من الصيغة التي تعتبر علم النفس هو علم السلوك[61] وذلك في اتجاه التجاوز ، بحيث إن النشاط العقلي هو الذي يجب أن يكون محط الاهتمام ، ومن ثم فإن علم النفس ضمن هذا التصور يهدف إلى أن يكون علما لما هو موجود أو يقع خلف السلوكات الظاهرة. على المستوى الإبستمولوجي فعلم النفس المعرفي يطرح باعتباره بمثابة توجه إبستمولوجي يتعلق بموضوع علم النفس ذاته[62].

بيد أن نوعية هذه الاهتمامات والمشروع العلمي الذي أسست له ، لم تمنع من كون كثير من الباحثين والدارسين يرون أن أهم الصعوبات التي تواجه البحث في هذا المجال تتمثل في أن كافة العمليات المعرفيةكوقائع وسيرورات تبقى غير محسوسة وغير مرئية[63]. والحال أنها من الإشكاليات التي تطرح سواء بصيغة أو بأخرى ، بحيث تقترن بها مساءلات من قبيل ما إذا كانت معرفة هذه الوقائع ممكنة وقابلة للتحقق ، باعتبار أن الملاحظة التي تفترض وجود هذه الوقائع تظل عمليا متعذرة ، وهو الأمر الذي كان يرفضه ويعترض عليه الاتجاه السلوكي[64]. أي أن كل ما يرتبط بالفرد وتستحيل ملاحظته ، فإنه لا يرقى إلى موضوع المساءلة العلمية. بطبيعة الحال ، فالطرح المعرفي لا يتقيد بهذا الموقف ، حيث إنه سيستأنس بطريقة الاستبطان في سبيل البيان ومن أجل محاولة التغلب على مثل تلك الصعوبات ، ولكن من دون الاستسلام لإغراءات هذه الطريقة[65]. إذ إنه ، بحسب هذا الطرح ، يمكن للاستبطان إلى جانب التجارب التي يجريها علماء النفس على الأفراد ، أن يؤدي إلى نتائج قيمة تفيد بما يمكن للعقل الإنساني أن يحتفظ به بسهولة ، وكذلك أي استنتاجات يمكن أن يخرج بها العقل الإنساني[66].

من نتائج النقلة النوعية التي حصلت مع العلوم المعرفية سواء على المستوى العلمي أو على المستوى الإبستمولوجي ، أن المحور النظري في علم النفس المعرفي سينتقل من مفهوم السلوك المرتبط بالسلوكية وبالتراث المفاهيمي الذي صار كلاسيكيا إلى مفهوم المعرفة ومرفقاته من الأدوات المفاهيمية الجديدة. ذلك أن مجال علم النفس المعرفي ستحصل ضمنه قناعة مفادها أن العلم السيكولوجي بفعل التقدم الحاصل ومستويات النظر والاشتغال لا يجب أن ينحصر في معالجة الظواهر والسيرورات النفسية أو العقلية من حيث العلائق والروابط بالوقائع الخاضعة للملاحظة ، ولكن ضرورة التوسع في الاهتمام بالوقائع الغير خاضعة للملاحظة والعمليات المفترضة من مثل: التمثل والاعتقاد والقصدية والوعي أو الشعور. إنها تلك العمليات التي لا يمكن تقديم فهم وتفسير بشأنها فقط من خلال تعبيراتها ومظاهرها الخارجية. فتوسيع الاهتمام على هذا الأساس طبعا سوف لن يكون على حساب الضبط المنهجي ، بل في ظل الالتزام بالموضوعية والطريقة

التجريبية[67].

بالنسبة إلى علم النفس المعرفي ، حتى أنه حينما يتعلق الأمر بتحليل السلوكات القابلة للملاحظة لدى فرد معين وذلك في موقف معين (على غرار المنطق المعتمد في علم النفس التجريبي) ، فإنه يمكن أن يتم وفق ما يتعلق بالمعارف والمعتقدات لدى هذا الفرد فيما يخص الموقف ، وكذلك وفق المعالجة العقلية التي يقوم بها هذا الفرد بشأن هذه المعارف والمعتقدات[68]. أي الكيفية التي يتفاعل بها مع الموقف وما يعبر عنه من إدراكه وتفاعله هذا. مقاربة من هذا النمط من الاشتغال تسعى إلى توضيح هذه المعارف والطريقة التي عولجت بها. وهو النمط الذي سيعيد صياغة الممارسة البحثية في اعتبارها لموقع السلوك /الفرد وعلاقته بالموقف /البيئة.

ما من شك أن علم النفس المعرفي منذ قيامه كمجال له كيانه الخاص ، اتخذ اتجاها يتمثل في كونه لم يتخل عن الشروط المميزة للعلم والتي تتجلى أساسا في الموضوعية والتجريب والتحقيق[69]. إلى جانب المعنى الذي يعكسه اعتبار علم النفس المعرفي أنه الشكل الراهن الذي تتخذه السيكولوجيا العلمية ، وذلك على الخصوص من حيث توفر شروط المسعى العلمي[70]. من ناحية أخرى ، فإن علم النفس المعرفي حسب طبيعة المجال ونوعية المهام المعني بها ، يمكن أن يتحدد فقط من خلال الإشكاليات والقضايا التي يعالجها وليس من خلال الطريقة المستعملة لهذه المعالجة ، أي أنه يمكن تمييزه بالأساس من حيث موضوع الانشغال لا من حيث أسلوب الاشتغال. بمعنى آخر ، إن تحديده يقوم على الموضوع وليس على المنهج. هذا ليس معناه أنه لا يعير أهمية للمنهج ، بل له مكانته التي تساهم في تحقيق المشروعية العلمية.

هذه الوضعية لم تمنع بدورها من أن تطرح عدد من الأسئلة الإبستمولوجية والمنهجية بالنسبة إلى هذا المجال كما هو الشأن بالنسبة إلى علوم المعرفة عامة ، وذلك بالرجوع إلى ما كان مرفوضا من قبلالسيكولوجيا العلمية فيما يتعلق ببعض القضايا وأشكال التعاطي معها[71]. ليس معنى هذا ، أن ما كان غير مقبول تناوله علميا أصبح مقبولا والعكس بالعكس ، بل كل ما في الأمر هو أن قضايا تترجم النشاط العقلي لم يكن مستساغا جعلها كموضوع لعلم النفس ، وهي المسألة التي صارت ممكنة مع المنظور المعرفي. فمن تداعيات تجاوز الممنوعات التي كانت ملقاة على الإشكاليات الذهنية ، أنه سجلت عودة إلى موضوعات مثل دراسة الصور الذهنية التي كانت منتشرة في بداية القرن العشرين. وقد تطور البحث في هذا الموضوع خلال السبعينيات مع المقاربة المعرفية ، وهو الأمر الذي كان غير مستساغ وغير وارد البحث فيه فقط قبل عقد من تلك الفترة[72] ، ويكفي التذكير في هذا الصدد بالصعوبات والانتقادات التي رافقت ظهور كتاب بياجي: الصورة الذهنية لدى الطفل سنة 1966. فهذا التطور سيفسح المجال للقضايا الذهنية أن تأخذ نصيبها من الاهتمام العلمي ، خاصة في البحث السيكولوجي الأساسي.

المقاربة المعرفية إذن ، على عكس المقاربة السلوكية تنطلق من فكرة تفيد وجود وفاعلية الحالات الذهنية. ومن خلال مضامين هذه الحالات الذهنية وتجلياتها يمكن تفسير التصرفات الإنسانية[73].

ما يطرح من ملاحظات بخصوص قضايا الموضوع يطرح أيضا بالنسبة إلى المنهج ، فليس بجديد القول إن التجريب شكل منهج السيكولوجيا العلمية بامتياز مع الإقصاء التام للاستبطان. وهو الإقصاء الذي عملت المقاربة المعرفية على رفعه واعتماد طريقة الاستبطان باعتدال (أي دون السقوط في الذاتية) إلى جانب المنهج الأساسي الذي هو التجريب. ثم إن المسألة لا تتوقف عند حدود تبني المنهج التجريبي ، ولا أدل على ذلك من استعمال تعبير علم النفس المعرفي عوض تعبير علم النفس التجريبي أصبح رائجا في كثير من الأعمال والمؤسسات العلمية[74]. بل أكثر من ذلك ، إذ هناك من يذهب إلى الجمع في مفهوم واحد: علم النفس التجريبي المعرفي باعتباره مفهوم مرادف للسيكولوجيا العلمية[75].

إن المزاوجة بين ما هو معرفي وما هو تجريبي كمسعى أو كطريقة اشتغال ليس بالمطلق أو النهائي ، إنه بدون شك ليس سوى فعل ارتباط تاريخي مرحلي. بحيث إن علم النفس التجريبي يتحدد بالأساس من خلال المنهج وليس من خلال الموضوع[76] ، بينما يبقى الموضوع هو المحدد الأساسي له في علم النفس المعرفي. مظهر آخر للارتباط والمزاوجة يتمثل في أن الظواهر والقضايا التي كانت تشكل تقليديا موضوعات علم النفس التجريبي (مثل: الإدراك ، الذاكرة ، اللغة ، التعلم..) هي نفسها التي يعالجها علم النفس المعرفي. مع انفتاح هذا الأخير على قضايا ذهنية ، في حين تم تسجيل قصور علم النفس التجريبي في دراسة المعرفة[77] ، و على الخصوص في دراسة العقل وعملياته.

يهتم علم النفس المعرفي أساسا بدراسة مجموع الوظائف المعرفية التي تتمثل في النشاطات العقلية ، بحيث إن هذه الوظائف يتم اعتبار أهميتها من خلال اشتغالها الفاعل والنشط لدى الإنسان. ثم إن الإنجازات الراهنة لهذا الفرع العلمي أثبتت أن تبني علم النفس عامة للمنهج التجريبي هي بمثابة مكسب جد مثمر ومصدر إغناء علمي[78].

موقف مماثل يحصل مع العلوم العصبيةneurosciences ، حيث إنه بنعت علم النفس المعرفي كمجال علمي يدرس العقل ، تأتي إثارة مسألة العلاقة بين العقل والدماغ[79]. على اعتبار أن العقل هو نشاط الدماغ ، وهو النشاط الذي من المعروف ولا ريب في ذلك ، أن سنده يبقى عصبيا ، بينما يتم التعاطي معه من حيث اعتباره بكيفية وظيفية[80]. فكما بينت العلوم العصبية (التي هي طرف في العلوم المعرفية) ضرورة اشتغال الدماغ في انسجام مع التكوين العضوي ، سمح البحث السيكولوجي بتبيان دور التنظيم الذي يضفيه نظام العقل على المدركات[81] والمواقف. ثم هناك مظهر آخر يميز التوجه الذي ينخرط فيه كل من المجالين العلميين. علم النفس المعرفي ومن باب المهام التي يسعى إلى أن ينشط فيها ضمن مشروعه العام ، فإنه يعطي لنفسه كبرنامج النزول مما هو منطقي إلى ما هو بيولوجي ، بينما العلوم العصبية تقترح الصعود من البيولوجي إلى المنطقي[82]. ينضاف إلى ذلك ، أنه بالنسبة إلى البحث السيكولوجي تمثل مجموع السيرورات التي تحتويها الحياة العقلية كوحدات للاشتغال المعرفي ، ينظر إليها بصيغ طبيعية وهي تقترب من الاشتغال العصبي[83].

جل المشتغلين بعلم النفس المعرفي من علماء وباحثين يعتبرون أن سلوك الفرد هو على الأقل قائم على ما لدى هذا الفرد من معرفة .cognition[84] بمعنى أن سلوكه هذا هو دائما محكوم بما يعرف أو ببنائه المعرفي. فالبعد المعرفي إذن ، يشكل أحد المحددات الهامة للتعامل مع الموقف الذي من خلاله وعلى ضوئه يحدث السلوك أو يكتسب ، مع ما يتضمن هذا الأخير من عمليات نشطة في التعامل المعني.

المنظور المعرفي يعتبر بديهيا أن كل معرفة تفترض الانتقاء والتأويل للمعلومات التي يستقبلها ويحصل عليها الفرد ، وبالنسبة إلى العقل أو التفكير فإن كلاهما يقتضي العمل باستراتيجيات ، من نموذج حل المشكلات مثلا ، التي تتوافق مع كل موقف ووضعية[85]. أما فيما يتعلق بالأخصائي في علم النفس المعرفي (وهو اختصاص في الاشتغال العلمي الأساسي يمتد أيضا إلى الممارسة النفسانية ، بحيث صار لما يعرف بالعلاج المعرفي مكانه المتميز ضمن أشكال العلاج النفسي) ، يتجلى دوره في إظهار وإثبات ما يقع داخل "الصندوق الأسود" للعقل. شغله الشاغل إذن ، يتبدى في البحث من أجل فهم طبيعة الحالات الذهنية من مثل التمثلات représentations والصور images والمفاهيم concepts وغيرها التي تؤثث التفكير لدى الفرد ، وكذلك توجه التصرفات والسلوكات[86].

على مستوى البحث إذن ، فالاشتغال يتجه إلى ممارسة نوع من التحليل "الوظيفي" لمثل هذه العمليات العقلية[87]. كما أن الاهتمام ينصب على عدد من القضايا

من قبيل:
.المعرفة من حيث صيرورتها والتنظيم وفق البناء المعرفي للفرد.
.تجهيز وتصريف ومعالجة المعلومات من حيث أنظمة التجهيز وطبيعة اشتغالها.
.استراتيجيات التجهيز والمعالجة التي تتوقف فاعليتها على خصائص البناء المعرفي للفرد[88].
بصفة عامة ، مجال علم النفس المعرفي يزخر بعدد من المهام والأهداف الخاصة التي تستهدف اشتغال العقل لدى الإنسان ، كما تجدر الإشارة إلى أن الازدهار الذي عرفه هذا المجال وأيضا بالنسبة إلى الأطروحات والنماذج المعرفية ، قد ساهم فيه التطور الحاصل في قطاع تكنولوجيا الحاسوب والمعلوميات[89]. في هذا الإطار ، لا مندوحة من القول بأنه من بين مختلف المجالات العلمية والفكرية التى تتشكل منها العلوم المعرفية ، يتميز علم النفس بوضع خاص[90] ، وذلك لاعتبارات منها:
.أنه تأثر "بالثورة المعرفية" ، وذلك بالاستعارة من المجالات العلمية المجاورة[91] سواء على مستوى المفاهيم أوأدوات الاشتغال.
.قوة المكانة التي أصبح يحتلها داخل الحقل العام لعلم النفس من جهة ، ومن جهة أخرى ضمن نظام المعارف والعلوم بصفة عامة.
.أنه يشكل في الواقع إدماجا للمظاهر العامة والارتقائية والاجتماعية في أبعادها السلوكية والعصبية الفيزيولوجية[92].
.أنه عمل على جمع وتوحيد عدد من المباحث التي كان لها تقليديا مكانها ضمن مجالات مختلفة من علم النفس مثل: الإدراك والانتباه والذاكرة واللغة والنشاطات العقلية ، وذلك داخل فضاء مستقل للبحث وهو المتعلق بالمعرفة ، ومن ثم جعلها موضوعا خاصا به[93].
ثم إن هذا الوضع الخاص الذي يطبع مجال علم النفس المعرفي ، لا يعفيه من أنه على مستوى تحديد الهوية العلمية يبقى تقريبا مرادفا لتعابير متنوعة ومعقدة شيئا ما ، من نوع: دراسة وتحليل جمع وتخزين ونقل ومعالجة المعلومات لدى الإنسان.
مفهوم المعرفة:
إن كلمة معرفة cognition قد حلت محل كلمة معرفة من دون أن تلغيها أو تعوضها ، ولكن من أجل شغل موضوع فحص علمي وقيامها كأداة مفاهيمية متميزة. فعلى الرغم من أصل الكلمة اللاتيني cognitio ، أنها أتت من الإنجليزية[94] بنفس البناء ، وذلك بفعل ظروف استعمال المفهوم والعلوم المؤطرة له. هكذا يكون بروز الكلمة وانتشارها بقوة جاء مع النقلة التي حققها علم النفس المعرفي بصفة خاصة والعلوم المعرفيةبصفة عامة. ثم إن ازدهار الكلمة يجد تفسيره بدون شك من كونها تتضمن إحالة على نشاط الفرد الذي يعرف ويكتسب معارف. بينما هذه الأخيرة ، أي المعارف فهي تشير بالأساس إلى منتوج هذه النشاطات[95]. وهي النشاطات في مجملها التي تساهم لدى الفرد في تنمية المعارف والحفاظ عليها وكذا استعمالها ، كما أنها نشاطات تتفاعل على مستوى عمليات الإدراك والذاكرة والتعلم واللغة.
إن التمييز بين الكلمتين إذن ، يجد معناه إلى حد ما في العلاقة بالدماغ cerveau ، حيث إن المعرفة cognition هي بمثابة النشاط الأساسي للدماغ سواء من وجهة بنيوية أو من وجهة وظيفية[96] ، بينما المعارف connaissances فهي مجموع نواتج ومحصول هذا النشاط. وبالتالي يمكن القول بداهة أنه ليس هناك من معرفة إلا حيثما يوجد دماغ[97].